

تفسير ابن كثير

وهذا إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال الكفار من اليهود والنصارى لمقاتلتهم هذه المقالة الشنيعة والفرية على الله تعالى فأما اليهود فقالوا في العزيز : إنه ابن الله تعالى عن ذلك علوا كبيرا وذكر السدي وغيره أن الشبهة التي حصلت لهم في ذلك أن العمالقة لما غلبت على بني إسرائيل فقتلوا علماءهم وسبوا كبارهم بقي العزيز يبكي على بني إسرائيل وذهاب العلم منهم حتى سقطت جفون عينيه فبينما هو ذات يوم إذ مر على جبانة وإذا امرأة تبكي عند قبر وهي تقول : وامطعماه واكاسياه فقال لها : ويحك من كان يطعمك قبل هذا ؟ قالت : الله قال : فإن الله حي لا يموت قالت يا عزيز فمن كان يعلم العلماء قبل بني إسرائيل ؟ قال : الله قالت : فلم تبكي عليهم ؟ فعرف أنه شيء قد وعظ به ثم قيل له اذهب إلى نهر كذا فاغتسل منه وصل هناك ركعتين فإنك ستلقى هناك شيئا فما أطعمك فكله فذهب ففعل ما أمر به فإذا الشيخ فقال له : افتح فمك ففتح فمه فألقى فيه شيئا كهيئة الجمرة العظيمة ثلاث مرات فرجع عزيز وهو من أعلم الناس بالتوراة فقال : يا بني إسرائيل قد جئكم بالتوراة فقالوا يا عزيز ما كنت كذابا فعمد فربط على أصبع من أصابعه قلما وكتب التوراة بأصبعه كلها فلما تراجع الناس من عدوهم ورجع العلماء أخبروا بشأن عزيز فاستخرجوا النسخ التي كانوا أودعوها في الجبال وقابلوها بها فوجدوا ما جاء به صحيحا فقال بعض جهلتهم : إنما صنع هذا لأنه ابن الله .

وأما ضلال النصارى في المسيح فظاهر ولهذا كذب الله سبحانه الطائفتين فقال : { ذلك قولهم بأفواههم } أي لا مستند لهم فيما ادعوه سوى افتراءهم واختلاقهم { يضاهئون } أي يشابهون { قول الذين كفروا من قبل } أي من قبلهم من الأمم ضلوا كما ضل هؤلاء { قاتلهم الله } قال ابن عباس : لعنهم الله { أنى يؤفكون } أي كيف يضلون عن الحق وهو ظاهر ويعدلون إلى الباطل ؟ وقوله : { اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم } روى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير من طرق عن عدي بن حاتم أنه لما بلغته دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فر إلى الشام وكان قد تنصر في الجاهلية فأسرت أخته وجماعة من قومه ثم من رسول الله صلى الله عليه وسلم على أخته وأعطاه فرجعت إلى أخيها فرغبته في الإسلام وفي القدوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقدم عدي إلى المدينة وكان رئيسا في قومه طيء وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم فتحدث الناس بقدومه فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي عنق عدي صليب من فضة وهو يقرأ هذه الآية { اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله } قال : فقلت : إنهم لم يعبدوهم فقال : [بلى إنهم حرموا عليهم الحلال

وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم [وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم] يا عدي ما تقول ؟ أضررك أن يقال الله أكبر ؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله ما يضررك أضررك أن يقال لا إله إلا الله فهل تعلم إلهاً غير الله ؟ [ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق قال فلقد رأيت وجهه استبشر ثم قال [إن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون] وهكذا قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما في تفسير { اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله } إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرّموا وقال السدي : استنصحو الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ولهذا قال تعالى : { وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً } أي الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام وما حلّ فهو الحلال وما شرعه اتبع وما حكم به نفذ { لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون } أي تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد لا إله إلا هو ولا رب سواه